الفصل الثالث

هل الإسلام يُعارض العلم ؟!

مسألة الصراع بين الدين والعلم ـ وكما رأينا ـ نشأت في ظل النظام الكنسي ولا دخل للإسلام فيه ، فما هي حقيقة العداء بين الإسلام وبين العلم ؟

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : الدين دواء ، والعلم غذاء ، وليس الدواء بمغنٍ عن الغذاء ، وليس الغذاء بمغنٍ عن الدواء .

وما أكثر العلماء المسلمين الذين أتقنوا العلوم المعاصرة كالفلك والفلسفة والمعلوماتية ، وبالتالي فالقرآن الكريم يحض المسلم على الاطلاع والبحث في هذا الكون الفسيح ، والانتفاع بما فيه من أمور فائدة للجميع ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ـ١٩١] .

والعلماء ـ حتى من غير المسلمين ـ عندما اطلعوا على حقائق الدين وقارنوا ذلك فقط مع العلم الحديث ، رأوا أن لا تعارض بينهما ، مثال ذلك ما جاء في كتاب (التربية) للفيلسوف (هربرت سبنسر) (ت : ١٩٠٣م) :

إن العلم الطبيعي لا يناقض الدين . . ، ومتى اتفق العلم والدين نَموا

نُمواً صحيحاً ، فالدين ينمو بامتداد جذوره وتغذية أصوله في رياض العلم الصحيح ، والعلم الصحيح يؤيد الدين ويشدُّ أزره ، فيكون قوياً متيناً ، فمن ذا الذي يرى منافاة الدين للعلم ؟ ألا إنما المنافي للدين هو ترك العلم ، وبما أحاط بنا من المخلوقات ، لذلك أكرر القول بأن مخالفة الدين ليست هي في دراسة العلم الطبيعي ، بل هي في تركه والانصراف عنه!

ألا إن التوجيه للعلم الطبيعي عبادة صامتة ، وتسبيح عملي .

إن العلم الطبيعي موافق للدين وهو مُقوٍّ له ومؤيد من جهات كثيرة ، إنه يُري الإنسان عالماً منظماً بحركات ثابتة جارية على نظام لا تتخطاه ، وناموس لا تتعداه ، وهذا النظام يدل على قوة وراءه ، وحكمةٍ أبدعته وسوَّته أحسن تسوية ، العلم الطبيعي يُعرِّفنا سبب الكائنات معرفة صحيحة ، ويُعلمنا أن النتائج تتبع المقدمات ، وأن المسببات تتلو الأسباب ، وأن الثواب والعقاب مرتبطان بالأعمال ارتباط المسببات بأسبابها ، فيوقن الطالب حينئذٍ إيقاناً تاماً مبهماً ، وإن ذلك ارتقاء في معارج الكمال والسعادة العليا ، والعلم الطبيعي يعرفنا أن لنا حداً محدوداً لا نتجاوزه في العلم ، فلا نتخطاه إلى معرفة السبب الأول ـ صانع الكائنات ـ وحقيقته ، لكنه يهدينا إلى الحدود التي نقف دونها ولا نتجاوزها ، فلا نصل إلى كنهه ومعرفة حقيقته ، إياك أن تظن أن العالم الطبيعي هو من يعرف التحليل الكيميائي ، أو يقرأ الهندسة ، وإنما نعني به ذلك العالم الذي يتخذ أسافل الحقائق سُلَّماً لأعاليها ، حتى يبلغ الحقيقة العليا ، ومن ذا سواه يعرف الهُوَّة السحيقة الفاصلة ما بين ذلك الصانع الحكيم ـ الذي جعل الطبيعة والحياة والعقل من مظاهر ذاته ـ وبين العقل الآدمي والفكر الإنساني ؟ إن الفرق لعظيم . . . .

بينما رأى (هكسلي) بأن العلم الطبيعي الصحيح والدين الصحيح توءمان ، إذا انفصل أحدهما عن الآخر خرَّا صريعين ، وماتا حتف أنفيهما!!

إذاً :

لا نزاع بين العلم والدين ولا عداوة ، إنما قد يحدث نزاع بينهما إذا كانا يسيران على الظن لا على الحقائق العلمية ، وبالتالي فالنزاع يحدث بين الظنيات في الدين والظنيات في العلم والنضال . وظني الدين وظني العلم ، كلاهما ليس مبنياً على اليقين المقطوع بصحته .

والمشكلة التي توصل إلى ما يسمى نزاعاً بين العلم والقرآن الكريم هي عدم رجوع الناس إلى كتاب الله ، وعدم دراسته الدراسة الواعية الهادفة ، وإلا لو اطلعوا على الدين حقيقة ، لرأوا أنه دين الحق والعلم الحق .

لذلك فمن الواجب علينا أن نعتقد أن ليس في القرآن من الآيات القطعية الدلالة ما يتعارض مع قطعيات العلم ، وأما ما عارض من ظنيات العلم مع ظنيات الدين ، فلنا الخيار في استخدام الأولى وانشراح صدرك لذلك .

وبالتالي فلا يجوز للعالم الكوني أن يتهجم على أمور الدين ، ولا يجوز للعالم الديني أن يشن حملة قوية على علماء الكون .

ولا بد من ملاحظة في غاية الدقة ، وهي أن في العلم نظريات تطرح ، لكنها تبقى في مرحلة الظن حتى تتحول إلى حقيقة ، والقرآن الكريم لم يجعله الله كتاب علم ، وإلا فكيف يطرح على الناس في الزمن الغابر قضايا الذرة وما إلى هنالك ؟!

ولابد من الالتفات إلى إشارات القرآن الكريم ، والتي تكوّن فيما بين بعضها البعض حديثاً لا بأس به عن الأمور العلمية القطعية .

لكن قد ينكر عالم كوني مسألة أثبتها الإسلام ، كما لو قال : لا يوجد ملائكة ولا جن ولا عرش ولا كرسي ، لماذا ؟ .

يقول : بأن آلات الرصد لم تتنبأ بذلك ! .

يجيب علماء الشريعة : إن عدم الوجود لا يدل على عدم الموجود ، فكم من قضايا جهلها السابقون لعدم توفر الوسائل الكافية ، استطاع المتأخرون إثباتها ؟

ومازال العلم في بداياته ، ولا ندري متى يأتي الزمان الذي يستطيع الإنسان فيه ـ عن طريق العلم ـ الوصول إلى أمثال رؤية الجن وما إلى هنالك .

لكن أي محور ركز عليه القرآن وهو يتحدث عن العلوم ؟!

إنه الأسلوب الاستدلالي النظري التأملي ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس : ٧٧ـ٨١] .

وهل يجمع القرآن بين الدين والعلم ؟

نعم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ [الروم : ٥٦] . وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

لذلك أورد القرآن العلم مقابل الجهل ، قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٨٩] .

ووضعه مقابل الظن ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

ووضعه مقابل الهوى ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

من هنا فلا فرق بين العلم والدين في نظر الشريعة الإسلامية أبداً ، إنما الفرق ينحصر في بعض الجزئيات ، ذلك لأن العلم في الميزان الشرعي دين وعبادة وتقرب إلى الله ، وكذلك الدين فهو علم . كما قال تعالى : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ١-٥] . حتى الوحي فقد وصفه الله بالعلم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤] .

ونرى استخدام المصطلحات العلمية لتدل على الله تعالى ، كما في قوله عز وجل :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

وبالتالي فهي التي تحمي العقيدة والشريعة ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد : ٢٥] .

❊ ❊ ❊

إذاً :

من أراد أن يقول : إن بين الدين والعلم نزاعاً وتعارضاً ، فإن هذا الكلام قد قيل في القرون الوسطى ، أما اليوم فقد أثبت العلم بما تم اكتشافه من اختراعات وكشوفات ، أنه ملازم للدين الإسلامي ، ولا مجال لإلصاق التهم التي قيلت بالكنيسة ، أن يلصقها الناس اليوم بالإسلام ، وذلك لأن :

في القرآن الكريم والسنة الطاهرة حشداً كبيراً من الآيات والأحاديث التي تحض على التفكر والتأمل والبحث ، ودعوة إلى الاستفادة من كل ما خلق الله في هذا الكون ، أضف إلى ذلك مدحه للعلماء وطلاب العلم ، وتفضيلهم على سائر المخلوقات ، وحتى اليوم لم تستطع الحقائق العلمية ـ لا النظريات ـ أن تعلن أنها تفشل الإسلام لما فيه من تناقض مع الحقائق .

أما ما حدث في القرون الوسطى حيث فرض على الناس قضايا وردت في العهد القديم والجديد ، لايستطيع العقل تصديقها ، وبالتالي كذّبها العلم ، فهذا التنافر بين الدين والعلم سببه أن هناك كثيراً من التحريفات وردت في العهدين القديم والجديد ، فهل يتحمّل الإسلام أخطاءً حدثت قبل إرسال رسوله بآلاف السنين ؟!

من جانب آخر فالدولة المسيحية آنئذٍ خضعت لسلطة الكنيسة الدينية ، وكانت النتيجة تحريم كل علمٍ يخالف أمر الكنيسة أو أمر العهدين القديم والجديد ، لذلك دُفنت بعض الآراء العلمية خوف خروجها إلى الناس ، ولم تهتم الدولة بالمدارس والمكتبات ، وذلك لأنها حصرت التعلم في الأديرة التابعة للكنيسة . . .

أما في الإسلام ، فالدولة هي التي أنشأت المكتبات والمدارس

والجامعات ، وهي التي شجعت على حركة الترجمة ، وهي التي أنشأت مصانع الورق . . .

فهل نتّهم الدولة الإسلامية بما اتهمت به المسيحية ، من أنها تقف ضد العلم ؟!

وأما العلماء ، ففي عهد الكنيسة ذاقوا على أيدي الرهبان أشد أنواع التعذيب والاضطهاد ، وحرق الكثير منهم : كَـ (كبرونو) و عذب (جاليلو) وغيرهما .

بينما في دولة الإسلام كان للعلماء دور كبير ومكانة مرموقة عند العامة والسلطان ، إلى درجة أن البعض منهم ارتفع إلى درجات لا مثيل لها ، كالإمام أبي يوسف رحمه الله . . . وهكذا بالنسبة للمكتبات ، فالكنيسة حصرت الأمر كله في أروقتها ، واهتمت فقط بأمور اللاهوت ، وكانت الكتب غالية الثمن . . .

أما دولة الإسلام فهي التي شجعت على شراء الكتب ، وهي التي أنشأت المكتبات ، وهي التي أنفقت الأموال في سبيل المحافظة على الكتب .

فهل نتهم الإسلام بالتهمة ذاتها التي اتهمت بها الكنيسة ؟!

أبداً ، فمع العلماء ـ الذين نادوا يوماً ما بفصل الدين عن الدولة ـ الحق الكامل في ذلك ، نتيجة الأخطاء والانحرافات التي وقعت فيها ، ولكن ليس مع أحدٍ الحق اليوم في أن ينادي بشعار فصل الدين عن الدولة ، لأن الإسلام لا تنطبق عليه تلك القضية ، بل الشريعة الإسلامية رتبت ثلاثة أمور ترتيباً رائعاً ، وفصلت بين بعضها بحرف (الفاء) التي تفيد الترتيب والتعقيب ، وهذه الأشياء الثلاثة هي : العلم والإيمان والإخبات ، بحيث إذا علمت وصلت إلى الإيمان وبالتالي وصلت إلى إخبات القلب .

قال تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : ٥٤] .

ذلك لأن العلم الحقيقي يهدي إلى الإيمان ، لا ينازعه ولا يصارعه ولا يناقضه ، قال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء : ١٠٦-١٠٩] .

لكن يجب التمييز بين علمين : فهناك علم يهدم ويخرِّب ويدمر ، وهذا ما نراه اليوم ، قاذفات للصواريخ ، قاذفات للقنابل ، قنابل جرثومية وما إلى هنالك ، كل هذه أسلحة فتاكة لم تجلب للعالم إلا الخراب والخوف وعدم الطمأنينة ، وسبب ذلك أنه علم لا يتصل بالإيمان فهو أبتر!!

أما العلم الذي يريده الإسلام ، فهو الذي يبني ويعمر وينتج ويسعد الإنسان ، وسبب ذلك ارتباطه بالإيمان بالله سبحانه .

وهكذا فالعلم الحق هو الذي يوصل إلى الإيمان الحق ، لأن العاقل إذا نظر في هذا الكون الفسيح ، ثم نظر في نفسه ، ثم تأمل وتدبر ، وفكَّر و . . . ، علم يقيناً بوجود ربٍّ خالقٍ عظيمٍ لهذا الكون ، فخشع عقله وقلبه أمام حضرة الله تعالى ، وانعكس ذلك الإيمان على كل جوارحه ، وبالتالي أصبح إنسان الله ، وهذه هي حقيقة الإيمان ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

ولا يمكن لمتعلم علماً حقيقياً إلا أن يتسلل الإيمان إلى قلبه ، ولا يمكن لمؤمن بالله إلا أن يُقبل على تعلم العلوم المفيدة ، لأنه لا إيمان بلا علم ، ولا علم بلا إيمان .

* * *